شخصية العدد .

عز الدين بن عبد السلام .

لمحات من حياته وقبسات من دعوته .

أ.د.حسن عبد الحميد حسن .

عميد الكلية .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة .

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

و بعـــد.

فإن شيخنا عز الدين بن عبد السلام الذي نقدم له يمثل علماً مـــن أعـــلام الدعوة إلى الله تعالى في عصره ، استنارت بصيرتـــه بمعرفـــة الله ﷻ فخاض بحار الصعاب ، واقتحم ميادين الدعوة ، وتغلغـــل فـــي جوانـــب المجتمع السياسية والفكرية والاجتماعية وغيرها.

عايش عصراً حافلاً بالأحداث ومفعماً بالفتن التي كادت أن تعصف بالأمة الإسلامية آنذاك ، فواجهها بشجاعة الإيمان وحصافة العقل وسعة الأفـــق. فما لانت له قناة ، ولا سكت له صوت في ميدان الحق .

كان صاحب شخصية مهيبة لدى عامة الناس وخاصتهم ، وفقيهاً مجتـــهداً غاص في بحار الشريعة وأحاط بمقاصدها وأولى اهتمامه بمصالح النـــاس فكان كتابه (**قواعد الأحكام في مصالح الأنام**) متفرداً في موضوعاته.

والكتابة عن شيخنا عز الدين تتطلب سفراً كبيراً يميط اللثام عن جوانـــب شخصيته العظيمة.

وهذا البحث الوجيز أجريته على قاعدة (**ما لا يدرك كله لا يترك كلـــه**) ، فلم يسبر قلمي أعماق حياة شيخنا واكتفي بإطلالة يسيرة عليها ، وضَـــنَّ عليَّ الوقت فلم يسمح لي بالسير في ميادين دعوة الشيخ ومعايشة تراثـــه الفكري إلا قليلاً ، فقطفت من حدائق التاريخ أزاهير يانعة واخترت مـــن كُتَّاب التراجم والسير أصدق مروياتهم ، يحدوني الأمل في إعداد دراســـة مستفيضة عن شيخنا الجليل ، ويبقى الأمل قائماً متجدداً طالما بقي العمر وسنح الوقت ، وصاحَب هذا وذاك عون الله وتوفيقه.. أرجو من الله ذلك. والله من وراء القصد .

أ.د/ حسن عبد الحميد حسن .

*** لمحات من جوانب عصره .**

لاشك أن الشخصية العظيمة تؤثر في عصرها تأثيراً إيجابياً ، وذلك بالتغلغل في جوانب المجتمع والتعرف على أدوائه لتصنع له الدواء الناجع وتأخذ بيده صوب الطريق القويم ، وكان شيخنا العز بن عبد السلام واحداً من هؤلاء العظام ، عايش أحداث عصره وتفاعل معها بإيجابية وشجاعة، وسنذكر فيما يلي لمحة يسيرة عن الجانب السياسي لعصر شيخنا.

(١) الجانب السياسي :

اتسم عصر شيخنا بكثرة الأحداث السياسية داخل البلاد وخارجها ، فقد كانت هناك الحروب الطاحنة بين المسلمين والتتار من جهة ، وبين المسلمين والصليبين من جهة أخرى.

وعن التتار يقول **ابن الأثير** : " إن المسلمين منذ أن بُعث فيهم محمد عليه الصلاة والسلام لم يمروا بمثل تلك المحنة ".

ويبن لنا ما ارتكبه هؤلاء من جرائم وأهوال فيقول : " وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال[1].

تابع التتار زحفهم حتى وصلوا إلى بغداد عاصمة الدولة الإسلامية فاحتلوها سنة ٦٥٦هـ ، وظل احتلالهم لها أربعين يوماً ، قتلوا خلالها أكثر أهلها ، وأزالوا معالم الحضارة الإسلامية ، وفقد المسلمون على أيديهم تراثهم الفكري الذي ابتلعه نهر دجلة ، وتحولت بغداد إلى دمار وهلاك .

أما الصليبيون فقد كانت بينهم وبين المسلمين معارك طاحنة عرفت في التاريخ بالحروب الصليبية ، يقول **ابن الأثير** : " توطدت أقدام الصليبيين

(١) الكامل لابن الأثير ١٢/١٣٧،١٣٨

في الشام وملكوا آنذاك بيت المقدس ، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً بينهم كثير من أئمة المسلمين وعلمائهم وزهادهم فضلاً عما سبق من الحريم والأولاد ." (٢).

كان من الطبيعي أن تهب مصر لمساندة أهل الشام والوقوف معهم في محنتهم ، وتم ذلك بقيادة البطل المغوار **صلاح الدين الأيوبي** ، والذي استطاع بشجاعته أن ينتصر على الصليبيين وأن يسترد من أيديهم ما فقده أهل الشام من أراضي وممتلكات وعلى رأسها بيت المقدس.

أما في الداخل فقد شهد العصر صراعات وفتن داخلية بين حكام البلاد كان لها أكبر الأثر في عدم الاستقرار السياسي آنذاك.

(٢) الجانب الاجتماعي :

كان المجتمع الإسلامي آنذاك يموج بكثير من الأجناس المختلفة في الطباع والعادات والتقاليد ، هؤلاء عاشوا في مجتمع واحد لا يعرف الاستقرار فسادته الفتن والاضطرابات ، وكان لها أثرها في الحياة الاجتماعية ، ومن ملامح هذا العصر سيطرة المماليك على بلاد المسلمين وما حدث من الصراعات بينهم على حكم البلاد ، هؤلاء المماليك لم يجمعهم جنس واحد ، فمنهم التركي والمغولي والصيني .....إلخ .

كان المجتمع في عصر المماليك مجتمعاً طبقياً ، لكل طبقة سماتها وخصائصها :-

فالطبقة الأولى : طبقة الأمراء والحكام ، وعلى رأسهم سلطان البلاد ، وكان لها النصيب الأوفى من السلطان و النفوذ ، فامتلكت الأراضي والأموال وعاشت في ترف وبذخ.

(٢) المصدر السابق ١٠/ ٩٨

والطبقة الثانية: طبقة العلماء والفقهاء والقضاة ، وكانت تلي في منزلتها الطبقة الأولى .

أما الطبقة الثالثة: تمثل عامة الشعب على اختلاف مهنهم ، فكانت الطبقة الدنيا ، تعيش في المجتمع مغلوبة على أمرها ، يكدح أفرادها لقاء لقمة العيش ، كان منها الصانع والتاجر والزارع... إلخ.

وقد فرض السلاطين الضرائب الباهظة ، وكان الفرد في هذه الطبقة بمثابة الأجير لدى الأمراء و السلاطين.

عانت هذه الطبقة من الظلم والاضطهاد ، وغلبت على أفرادها صفات التواكل والسلبية واعتراهم اليأس.

ونخلص من هذا بنتيجة هي أن المجتمع كان مجتمعاً طبقياً ، ساده التمزق وعمته الفوضى.

(٣) الجانب العلمي :

اهتم سلاطين العصر وملوكه بالعلم ، ظهر هذا جلياً كثرة المدارس التي أنشؤوها ، وتشجيعهم للعلماء والشام ، فكانوا يوقفون على تلك المدارس من الأموال ما يهيء لطلابها وشعوبهم سبل المعيشة الراضية.

وكان السلاطين يحضرون مجالس العلم ، يقول المقريزي : " كانت توجد في دمشق وحدها تسعون مدرسة للفقه بمذاهبه المختلفة والتفسير والحديث وغيرهم من العلوم الدينية والعربية ، وكان منها أربع للطب وحده ." (٣)

وقد برز في هذا العصر علماء أجلاء ، نذكر منهم : **الإمام فخر الدين بن عساكر ، وسيف الدين الآمدي ، وجمال الدين الخراساني ، وابن تيمية،**

(٣)خطط المقريزي ٣/ ٢٩٥

وابن القيم ، وشيخنا عز العز بن عبد السلام وغيرهم ، خلفوا لنا تراثاً علمياً ننهل منه إلى يومنا هنا.

ونرى أن ما حدث على يد التتار من نكبة ــ كان التراث الإسلامي ضحيتها ــ دفع السلاطين إلى العناية بالجانب العلمي تعويضاً عما فقده المسلمون من تراث علمائهم.

(٤) الجانب الديني :

اتسم هذا العصر بالازدهار في الجانب الديني ، فعلى الرغم من معارضة رجال الدين لسلاطين البلاد في حالة خروجهم عن حدود الله ، إلا أنهم كانوا يضعون الاهتمام بالجانب الديني في طليعة أمورهم ، وكانوا يهابون علماء الدين ويستمعون إليهم وينفذون أوامرهم المشروعة ، بَيْدَ أن هذا العصر اتسم بتعدد الفرق الإسلامية ، وتباين النزعات المذهبية ، مما أدى إلى كثرة الصراعات بين الفرق ، فهناك الأشاعرة والمعتزلة والحنابلة والشيعة والروافض والمتصوفة... إلخ.

لقد صار التعصب لفرقة أو التحزب لمذهب متغلغلاً في عقول الناس تغلغل الدم في عروقهم.

كان السلطان إذا اعتقد بصواب فرقة ، أو أعجبه مذهب ، أو اعتنق رأياً، ــ ولو مخالفا ــ دافع عنه وتحدى مناوئيه ، وقد أدى هذا الأمر إلى وقوع كثير من الفتن بين العلماء ، بل وصل إلى حد التنكيل ببعضهم ــ كما حدث لشيخنا العز بن عبد السلام ــ ولا يفوتنا ــ في هذه العجالة السريعة ــ أن نذكر ما كان عليه علماء هذا العصر من جمود فكري ، لا في الفقه وحده ، ولكن في مختلف العلوم الأخرى ، فقد عكفوا على

التراث القديم بالشرح تارة والاختصار تارة أخرى ، وأغلقوا باب الاجتهاد.

وصار التقييد بالمذاهب الأربعة أمراً حتمياً لا يخرجون عن نطاقه ، يقول **العلامة ابن خلدون** : " ووقف التقليد في الأعصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمَنْ سواهم) [٤]

وقد أدى هذا الجمود الفكري لدى العلماء إلى التعصب للقديم والإنكار على مَنْ يخرج عليه.

أما مَنْ يُعمل عقله ويجتهد في مسائل وقضايا جدت في ذاك العصر فمصيره العداء الشديد ، والتشهير به في المجالس ، واتهامه بإنشاء مذهب خامس ، وهذا ما حدث لشيخنا العز بن عبد السلام مع علماء عصره.

ولعل ما ذكرناه ــ في هذه السطور القليلة ــ يلقي بظلاله على ملامح عصر شيخنا العز بن عبد السلام.

العز بن عبد السلام مولده ونشأته .

هو أبو محمد عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب السبكي الدمشقي الشافعي .[٥]

وُلد بدمشق ونشأ فيها ، كان والده لا يملك من الدنيا سوى ما يقيم به أودَ أطفاله بعد جهد ومشقة ، فنشأ شيخنا فقير الحال ، يقول السبكي : " وكان الشيخ عز الدين في أول أمره فقيراً جداً ، لم يشتغل بالعلم إلا على كبر "[٦]

(٤) مقدمه ابن خلدون .
(٥) تاريخ علماء بغداد ٨/ ١٠٤.
(٦) طبقات الشافعية للسبكى ٥/ ٢.

نشأ شيخنا في أحضان أسرة لم يشغلها طلب الرزق عن التمسك بـــالدين وتربية أولادها تربية دينية قويمة.

كانت حياه شيخنا عملاً دؤوباً في تحصيل الرزق.. حتى إذا ما جن الليـل أسلم جسده للنوم في زاوية من زوايا دمشق.

مكث على هذا الحال فترة طويلة من حياته حتى جـاوز الأربعيـن مـن عمره ، كانت نفسه تتطلع إلى العلم وتتمنى ولوج أبوابـه ، لكـن لقمـة العيش شغلته كثيراً عن هذا الأمر.

كان الشيخ يتمتع بحاسة مرهفة وفطنة عالية وذكاء خارق ، وهي صفـلت تدفع صاحبها إلى طلب العلم وتؤهله للنبوغ فيه.

ولكن ماذا يفعل الشيخ حيال أحواله المعيشية ؟

اتجاه الشيخ إلى طلب العلم.

في ليلة من ليالي الشتاء افترش شيخنا حصيرة في زاوية المسجد ، وقـد حوّلها شتاء دمشق القارص إلى قطعة من الثلج.

أسلم شيخنا جسده الذي طالما أعياه البحث عن الرزق استعداداً للنوم إلـى أن يؤذن لصلاة الفجر ، فإذا به يحتلم في نومه وعلى الفور يهب مذعوراً لما أصابه ثم يهرع إلى بركة في المسجد ليلقي بجسده في مائها ، الـذي كان أشبه بقطع من الجليد ؛ ليطهر جسده استعداداً للصـلاة ، ارتعـدت فرائصه من شدة البرودة ثم استسلم للنوم من جديد ، لم يلبث في نومه إلا قليلا حتى عاوده الاحتلام مرة أخرى ، ويكرر الشيخ ما فعله في المـرة الأولى ، ثم يسلم جسده للنوم ، فإذا به يحتلم للمرة الثالثة، ماذا يفعل إذن؟

إن منطق العقل يخاطبه : عليك أن تُرجئ الاغتسـال إلـى الصبـاح ، فجسدك لا يقوى على الماء مرة أخرى ، وستعرض حياتك للخطر ، هـل تخاطر بنفسك إلى هلاكها،وقد صارت لا تتحمل قسوة البرودة من جديد ؟

كانت إجابة الشيخ على منطق العقل ورغبة النفس حاسمة قاطعة ، فقد ألقى بجسده في صقيع البركة مرة ثالثة ، لا لشيء سوى أن يؤدي صلاة الفجر في وقتها.

خرج الشيخ من الماء وقد أصابته إغماءة من شدة البرودة ، وعندما أفاق منها سمع مَنْ يناديه : يا ابن عبد السلام أتريد العلم أم العمل ؟

فيجيب شيخنا على الفور : أريد العلم ؛ لأنه يهدى إلى العمل.

وعندما أشرقت الشمس سارع الشيخ إلى ميدان العلم وكانت بدايته حفظ كتاب (التنبية) للإمام الشافعي .[٧]

يقول السبكي : " كان يبيت في الكلاسة من جامع دمشق ، فبات فيها ليلة ذات برد شديد فاحتلم ، فقام مسرعاً ونزل في البركة فحصل له ألم شديد من البرد ، وعاد فنام فاحتلم ثانياً فعاد إلى البركة فطلع فأغمي عليه من شدة البرد ، ثم سمع النداء في المرة الأخيرة : يا ابن عبد السلام أتريد العلم أم العمل ؟ قال الشيخ عز الدين : العلم ؛ لأنه يهدى إلى العمل ، فأصبح فحفظ التنبيه في مدة يسيرة " [٨]

قد يشكك البعض في صحة الرواية ، لكني لا أستبعد صحتها ، فليس هذا بغريب على إنسان أخلص لله العمل والعبادة وطهر قلبه من كدورات الحياة فصار صافياً ، وجرَّد نفسه من شهوات الدنيا فاستنارت بنور الله ، وكان ما سمعه يمثل ثمرة من ثمار نور البصيرة. ، لقد أشرف شيخنا على الهلال فلم يعره اهتماما ، هانت عليه نفسه ،.وهانت الدنيا أمامه وصار ما يشغله هو الطهارة من الحدث ليؤدي صلاة الفجر في وقتها.

(٧) طبقات الشافعية ٥/ ٨٥ .
(٨) المصدر السابق والصفحة .

اتجه الشيخ عقب ذلك إلى ميدان العلم يسبر أغواره وينهل من معينه ما شاء الله له ، حتى برع في هذا الميدان وكان له نتاج علمي زاخر لا يزال طلاب العلم ينهلون من معينه .

وقد تتلمذ شيخنا على يد كوكبة من علماء عصره نذكر منهم : **الشيخ فخر الدين ابن عساكر** ، **والشيخ سيف الدين الآمدي** ، **والقاضي جمال الدين الخراساني** . وغيرهم[٩]

وقد كان لهؤلاء أثرهم في تكوين شخصية شيخنا العلمية وأثرهم في سلوكه.

نهل الشيخ من معين العلم واغترف من بحار الفقه ما جعله مؤهلاً لمنصب المعلم ، فأقبل عليه طلاب العلم من الشام وغيرها يتتلمذون على يديه ، يقول **ابن كثير** : " وقصده الطلبة من الآفاق ." [١٠]

وكما تأثر الشيخ بأساتذته أثر هو في طلابه ، وقد حفلت كتب التاريخ والسير بأسماء عديدة من تلامذة الشيخ صاروا فيما بعد علماء عصرهم ، كان أشهرهم " **ابن دقيق العيد** " والذي يُعد ــ بحق ــ صورة مكررة لشيخه عز الدين بن عبد السلام. وهو الذي أطلق على شيخنا عز الدين لقب سلطان العلماء .[١١]

---

(٩) المصدر السابق ٨٧/ ٥ .
(١٠) البداية والنهاية ١٣/ ٣٢٥
(١١) فوات الوفيات ٢/ ٥٩٥

شخصيته العلمية وتراثه الفكري .

إن المتتبع لحياة الشيخ العلمية منذ بدايتها يدرك جيداً أن الشيخ قد فاق أقرانه علماً ومعرفة وخبرة ودراية ، بل ونتاجاً علمياً كبيراً بلغ قرابة الأربعين مؤلفاً ، على قمته كتابه الشهير " **قواعد الأحكام في مصالح الأنام** "

وقد تنوعت مؤلفات الشيخ فشملت الفقه والتفسير والحديث وغيرها من العلوم الأخرى ، يقول **ابن العماد الحنبلي** : " وبرع في الفقه والأصول والعربية وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه ، وبلغ رتبه الاجتهاد . "[١٢]

ومثل هذا ذهب إليه **السيوطي وابن كثير والكتبى** بتصرف يسير[١٣]

وقفة مع كتاب " قواعد الأحكام في مصالح الأنام " [١٤]

ذكرنا فيما مضى أن مؤلفات الشيخ بلغت أربعين كتاباً على قمتها كتابه المشهور (**قواعد الأحكام في مصالح الأنام**) وقد أثرنا أن نقف مع هذا الكتاب وقفه سريعة تتفق ونطاق هذا البحث ــ الوجيز ــ ليتعرف القارئ الكريم على هذا الكتاب والذي تدور مسائله حول قاعدة شرعية هي **(جلب المصلحة ودرء المفسدة)** هذه القاعدة تدور حولها قواعد الشريعة من عبادات ومعاملات وأخلاق .

(١٢) شذرات الذهب ٣٠١/ ٥
(١٣) البداية والنهاية ٢٣٥/ ١٣
(١٤) راجع قواعد الأحكام في مصالح الأنام لعز الدين بن عبد السلام .

منهج الشيخ في كتابه .

سلك السيخ في كتابه منهجاً يدل على حصافة عقله وسعة أفقه وغوصه في بحار الشريعة ليستخرج منها قواعد تدور حول نظرية (**جلب المصالح ودرء المفاسد**).

ومنهج الشيخ في كتابه يتمثل في جمع عدة مسائل فقهية تبدوا متباينة تحت موضوع واحد ، وقد قسم الشيخ كتابه إلى عدة فصول وكل فصل منها اشتمل على عدة مسائل متفرقة ، وطريقه الشيخ هي إجمال ما يريد الحديث عنه في أول الفصل ثم تفصيله عقب ذلك ، وكثيرا ما يقطع الشيخ حديثه بين المسألة والأخرى وذلك بإيراد اعتراض متوهم يذكره الشيخ في صورة سؤال ثم يرد عليه وربما اقتضى الرد تقسيمات وتفريعات يسوقها الشيخ باستطراد ، ثم يعود إلى المسألة التي بدأها.

والقارئ للكتاب يجد نفسه في حيرة أحياناً ، و هذا الأمر يستلزم منه أن يتابع مسائل الكتاب بدقة خشبية الخلط بين المسائل الرئيسة في الكتاب وما يقحمه الشيخ في وسطها من اعتراضات أو توهمات ، و إلى جانب ذلك فإن الشيخ لم يقتصر في كتابه على تقعيد الأحكام الفقهية ــ كما هو واضح من عنوانه ــ وإنما تعدى هذا النطاق إلى جوانب أخرى كالعقائد والتصوف والكرامات والحديث عن الحيوان ، وغير ذلك من المسائل العلمية ، والتي كان الشيخ يخضعها لأحكام الشريعة ، ويُعمل عقله فيها عندما يفتقد النص الشرعي فيها ؟

نماذج من الكتاب .

قلنا إن كتاب قواعد الأحكام يدور حول (مصالح الناس) التي جاءت الأحكام الشرعية لتحقيقها ، وقد اشتمل الكتاب على كثير من المصالح

الدينية، السياسية ، الاقتصادية ، وهي مبثوثة في الكتاب متفرقة في ثناياه، لا يجمع واحدة منها فصل أو عنوان ، وإنما على القارئ أن يدركها بفطنته ، وأتمنى من بعض الباحثين القيام بتصنيف الكتاب في ثوب جديد وتبويب فصوله وتنظيم موضوعاته بأسلوب يبرز قيمة الكتاب العلمية وجهد الشيخ في تأليفه.

على أن تقسيم مسائل الكتاب إلى مصالح سياسية واجتماعية ودينية واقتصادية لم يكن استنتاجاً شخصياً لي ، وإنما يرجع الفضل فيه إلى أستاذي **المرحوم الشيخ البهي الخولي** ، فقد قرأ الكتاب جيداً وأحب صاحبه وكتب عنه بعض المذكرات اليسيرة ، لكن فكرة التقسيم هذه حدثني بها في جلسة من جلساته العلمية والتي كانت تمثل لي ينابيع علم ومناهل معرفة رحمه الله رحمة واسعة.

فمن المصالح الدينية نختار قاعدة تستوجب ــ كما يقول الشيخ ــ " تقديم إنقاذ الغرقى المعصومين على أداء الصلوات " ، ويعلل الشيخ لقاعدته فيقول : " لأن إنقاذ الغرقى المعصومين عند الله أفضل من أداء الصلاة ، والجمع بين المصلحتين ممكن بأن ينفذ الغريق ثم ــ أي المنقذ ــ الصلاة ومعلوم أن ما فاته من أداء الصلاة لا يقارب إنقاذ نفس مسلمة من الهلاك" وهو تعليل يقبله العقل وتستوجبه المصلحة فإنقاذ الغريق فيه مصلحة عاجلة تطلب تحصيلها على وجه السرعة ، وأداء الصلاة يمكن لمن أنقذ الغريق أن يؤديها ، وإذا كانت الصلاة تجب في وقتها ولا يجوز تأخيرها إلا أن الضرورة هنا تستوجب التأخير ، فالصلاة يمكن أداؤها ، لكن التأخير في إنقاذ الغريق قد يؤدي إلى هلاكه ، وإنقاذه مقدم على الصلاة

وإن تأخر المصلى عن أدائها في وقتها فقد جمع بين المصلحتين : مصلحة أداء الصلاة ، ومصلحة إنقاذ الغريق " [١٥]

ومنها ما يتعلق بالصغائر والكبائر يقول الشيخ : " إذا أردت معرفة الفرق بين الصغائر والكبائر فاعرض مفسدة الذنب على مفاسد الكبائر المنصوص عليها ، فإن نقصت عن أقل مفاسد الكبائر فهي من الصغائر ، وإن ساوت أذى مفاسد الكبائر أو أربت عليها فهي من الكبائر ."

ويضرب الشيخ مثالاً لذلك فيقول : "فمن شتم الرب ﷻ ،أو الرسول ﷺ ، أو استهان بالرسل ، أو كذَّب واحداً منهم ، أو ألقى المصحف في القاذورات ، فهذا من أكبر الكبائر ولم يصرح الشرع بأنه كبيرة ." [١٦]

وكذلك " لو أمسك رجلٌ امرأةً محصنة لمَنْ يزني بها ، أو مسلماً لمَنْ يقتله ، فلاشك أن مفسدة ذلك أعظم من أكل مال اليتيم مع كونه من الكبائر ."

ويعلل لقاعدته بأن المتسبب للكبيرة يعتبر مشاركاً لها ، ويماثل في الحكم من ارتكبها ، مع أن الشرع لا يطبق الحد إلا على مَنْ ارتكب الكبيرة مباشرة دون غيره ، ويرى الشيخ أن مرتكب الكبيرة يتساوى مع من أعانه عليها ، لكنها أقل درجة من مرتكبها الأصلي.

أما في مجال الاجتهاد : فقد تحدث الشيخ عن ضرورة الاجتهاد في الفقه الإسلامي ، وأنكر على أولئك اللذين يتسمون بالجمود والتقليد وتعطيل العقل ، يقول الشيخ : " ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف ما أخذ عن إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً ، ومع

(١٥) بتصرف من قواعد الأحكام .
(١٦) المصدر السابق .

هذا يقلده فيه ويترك من الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه جموداً على تقليد إمامه بل يتحايل لدفع ظواهر الكتاب والسنة ويتناولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلده ." [١٧].

وهذا يوضح محاربة الشيخ للجمود الفكري الذي استبد بعلماء عصره ويبين ــ في جلاء ــ ما وصل إليه الشيخ من رتبة عالية في الاجتهاد.

هذه أمثلة يسيرة لما جاء في كتاب قواعد الأحكام في مصالح الأنام.

ومن أراد التعرف على بقية المصالح وقواعدها فليطالع الكتاب وما ذكرناه مجرد أمثلة فحسب.

أسلوب الشيخ .

اتسم أسلوب الشيخ بجزالة الألفاظ ورصانة المعاني ، فلا غرابة في ألفاظه ولا ركاكة في تراكيبه يجمع بين عمق الفكرة وسهولة المعنى ، لا نجد فيه سجعاً متكلفاً ، وكان الشيخ واحداً من أولئك الذين تميزوا بقوة الأسلوب في الكتابة وقوة الأسلوب في الحياة أيضاً.

كان للطبيعة الصوفية الرقيقة أثرها في رقة أسلوبه وصفاء بيانه ، وكثيراً ما يستشهد الشيخ بالشعر في كتاباته وكذلك بالحكم والأمثال الهادفة.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الشيخ كان يملك ناصية البيان العربي ، وخير شاهد على ذلك كتابه **(الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز)** يقول السيوطي : (برع في الفقه والأصول والعربية)[١٨].

---

(١٧)المصدر السابق ١٥٩/ ١

(١٨) حسن المحاضرة للسيوطي١/١٢٥ .

تصوفه وكراماته .

ذكر السبكي أن الشيخ عز الدين قد تصوف في مصر على يد أبي الحسن الشاذلي ، وكان يجل شيخه الشاذلي ويقول عن كلامه (اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد بربه.) ، وكان الشيخ أبو الحسن يقدر شيخنا ويقول عنه "ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام). وقد نقل بعضهم أن الشيخ بايع شيخه أبا الحسن الشاذلي وصارت طريقته شاذلية .[١٩].

كانت طريقة الشيخ في التصرف هي بعينها طريقة السلف الصالح الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة واستلهموا تصوفهم من الكتاب والسنة فالتصوف كما يراه شيخنا عز الدين هو صفاء القلب وطهارة النفس ونقاء السريرة ، هو أن يكون قلب المسلم عامراً بذكر الله مستنيراً بمعرفته.

وشيخنا لم يكن متصوفاً على طريقة الكثيرين من عصره ، ومن أبرز مظاهرها السلبية والتواكل والانعزال عن المجتمع والاستسلام للواقع والتخلي عن الجهاد والانقطاع في زاوية للخلوة ، ولا شك أن حياة شيخنا عز الدين وما اكتنفها من أحداث ومواقف تؤيد ذلك.

كرامات الشيخ .

نسب المؤرخون إلى الشيخ كرامات كثيرة ، يقول السيوطي: " وله كرامات كثيرة "[٢٠]، ويقول ابن إياس : "وكانت له كرامات خارقة "[٢١].

وقد ذكر السبكي في طبقاته العديد من كرامات الشيخ ، وهو وإن غالى في بعضها إلا أن كثيراً منها لا نستبعد حدوثه ، فشيخنا عز الدين كانت

(١٩) طبقات الشافعية ٨٨/٥ .
(٢٠) حسن المحاضرة ١٢٦/١ .
(٢١) تاريخ مصر لابن إياس ١٣١/١ .

بصيرته مستنيرة بمعرفة الله ﷻ وقلبه عامراً بالإيمان تغلغل حب الله في جنبات نفسه فنأت به عن في زخارف الدنيا وشهواتها ، فغدا مهيأ لاستقبال المنح الإلهية ، أو ما يسمى بالكرامات مصداقاً لقول الله ﷻ : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .﴾ يونس٦٢-٦٤ .

لقد حقق شيخنا لنفسه الشرطين (الإيمان) و(التقوى) وكانت النتيجة البشرى في الحياة الدنيا وهي الكرامات ، يقول أستاذنا البهي الخولي : " فالإنسان إذا حقق لنفسه الحياة الفاضلة القائمة على أساس من معرفة الله ــ تبارك وتعالى ــ استنزل من الأفق الأعلى ما يحقق له رغباته ، وغدت أعماله وتصرفاته بل كل خلجة من خلجاته ونبضه من نبضاته خالصة لوجهه تعالى تهتدي بهدي الله وتستنير بنوره الإلهي ، ومن ثم تصبح الأشياء العظيمة ــ والتي يراها بعض الناس كرامات ــ في نظره عادية متى أراداها حققها ، وصدق الله ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ .﴾ الزمر٣٤ .

وهذا يمثل ــ في رأى شيخنا البهي الخولي ــ " العندية الإلهية" (٢٢).

منزلة الشيخ في عصره .

عرفت المجتمعات التي عاش الشيخ في كنفها وعايش أحداثها وشارك في مشكلاتها فضل الشيخ وعلمه ، فأحبه الجميع على اختلاف أجناسهم ومستوياتهم ، كانوا يقدرون علمه ويعتزون بخلقه ويعجبون لهيبته التي ولدت محبة في قلوبهم وخوفاً وجزعاً في قلوب أعدائه .

(٢٢) من محاضرات أملاها علينا الشيخ البهي الخولي .

أما منزلة الشيخ لدى سلاطين البلاد فكانت عظيمة ، فقد عرف السلاطين قدر الشيخ فأجلوه وأكبروه وخافوه وبالغوا في إكرامه ، وعندما كانت تقع الخلافات بينهم وبينه كانوا يعودون إلى صوابهم ويعتذرون إليه ، ذهب جماعة من الحاقدين على الشيخ ليوغروا صدر السلطان أيوب عليه فقالوا له : إن الشيخ لا يثنى عليك في الخطبة كما يفعل غيره من الخطباء، ويدعوا لك دعاء قصيراً فقال لهم السلطان : "دعوه فإنني إلى دعائه القصير لأحوج مني إلى الثناء الطويل من غيره وما عزلته عن القضاء، ولكنه عزل نفسه، ولو قبل أن يعود إليه لأعدته وما يملأ عيني من العلماء غيره ، وإياكم أن تعودوا للسعاية عندي بابن عبد السلام .

أما السلطان الأشرف فيقول عن الشيخ بعد إخماد فتنة المبتدعة وظهور الحق له : " نحن نستغفر الله مما جرى ونستدرك الفارط في حقه ، والله لأجعله أغنى العلماء ولقد غلطنا في حقه غلطة عظيمة ، وصار يسترضيه ويعمل بفتاويه[٢٣].

أما منزلته لدى علماء عصره فإن علماء العصر كانوا يقدرون الشيخ ويجلونه بعد أن خالطوا الشيخ وعرفوا سعة علمه ومكارم خلقه وجهاده في الدعوة إلى الله ، يقول **الشيخ الحصيري** ، وهو إمام المذهب الحنفي في عصره : " هذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي على السلطان أن يسعى في حلوله إلى البلاد لتتم بركته عليه وعلى بلاده، ويفتخر به على سائر الملوك. "

ويقول **ابن الحاجب المالكي** : " كان أفقه من الغزالي " [٢٤].

([٢٣]) طبقات الشافعية ٨٥/٥ .
([٢٤]) المصدر السابق ٨٦/٥ .

منزلة الشيخ لدى عامة الشعب .

كان الشيخ مصلحاً اجتماعياً تغلغل في مجتمعه وعايش عللـــه وأدواءه ، ودافع عن المظالم التي كانت تسوده آنذاك ، فأحبه عامة الناس وبـــالغوا في تكريمه ووقفوا معه في أحلك شدائده ، يدلنا على ذلك خـــروج أهـــل القاهرة رجالاً ونساءاً وأطفالاً خلف الشيخ حينما هـــم بمغـــادرة مصـــر احتجاجاً على سلطانها ، كان خروجهم معه وتمسكهم به تاركين أموالـــهم وبيوتهم وعاقدين العزم على الهجرة معه ، كان هذا تعبيراً صادقـــاً عـــن حبهم للشيخ ، ولما وجد السلطان أن القاهرة لم يبق فيها سواه وأعوانـــه عدل عن رأيه واسترضى الشيخ ، فعاد وعادت معه الجموع الحاشدة التي أحبت شيخها في بيع المماليك وقد تم له ما أراد ولنا فيها وقفة يسيرة فـــي هذا البحث.

كان الشعب ــ في القاهرة وفي الشام ــ يقدر مواقف الشـــيخ العظيمـــة والتي من شأنها إحقاق الحق وإقامة العدل.

صفاته.

من خلال مطالعتنا لسيرة الشيخ نوجز أهم صفاته فيما يلي :-

١- كان الشيخ ــ رحمه الله ــ صاحب شخصية قوية ، الصدق ديدنـــه ، والجرأة في الحق مسلكه ، أما الهيبة فكانت من أبرز سماته وهي هيئـــة العلماء صيرها الله في قلوب من حوله ، فكانوا يهابونه إجلالاً وتقديـــراً واعتزازاً ومحبة.

٢- اتسم الشيخ بالتواضع وعدم التكلف ، يدل على ذلك أنه عندما عـــزم على الرحيل من القاهرة حمل حوائجه وأهله على حمير وسار خلفـــهم ، هذا التواضع لم يكن له أثر على شخصيته المهيبة ، لم يثن من عزمـــها أو يوهن من جرأتها.

٣- عرف الشيخ بالإخلاص وعزة النفس وعدم التواكل أو التكاسل والاعتراف بالخطأ والرجوع عنه.

٤- كان الشيخ ورعاً تقياً متصدقاً ، يقول **السبكي** : " كان مع فقره كثير الصدقات ، وربما قطع من عمامته ليعطى فقيراً سأله إن لم يجد غيرها" " وعندما وقع في دمشق غلاء كبير صارت البساتين تباع بأثمان زهيدة ، فأعطته زوجته مصاغاً لها ليشترى بستاناً فتصدق بثمنه ، فقالت له زوجته : يا سيدي اشتريت لنا البستان ؟ فأجابها : لقد اشتريت لك بستاناً في الجنة إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمنه. فقالت الزوجة : جزاك الله خيراً " .

٥- عُرف الشيخ بالثبات على المبدأ والغيرة على دين الله ، وله في ذلك مواقف مشهودة أبرزها محنته مع الحنابلة، يقول الشيخ للسلطان الأشرف: " **فإنا نزعم أننا من جملة حزب الله وأنصار دينه وجنده** ".

٦- كان الشيخ رقيق العاطفة لين الكلام دقيق الملاحظة ، يملك التأثير على سامعيه ، رزقه الله قسامة الوجه ، وصفاء النفس وعلو الذوق ، وكان إلى جانب ورعه وتقواه لطيفاً ظريفاً يتذوق الشعر الرقيق ويجيد النثر ويحسن التعبير بأسلوب جميل .[٢٥].

يقول **ابن كثير**: " وكان ظريفاً يستشهد بالإشعار ." [٢٦]

ويضيف **ابن العماد الحنبلي** : " وكان مع شدته حسن المحاضرة بالنادرة والشعر ." [٢٧]

([٢٥]) من تراجم الشيخ العديدة .

([٢٦]) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٣/١٣ .

([٢٧]) فوات الوفيات ٥٩٥/٢ .

ونرى أن تصوفه القائم على الكتاب والسنة كان له أثره في صفاء نفسه ورقتها ، فالتصوف الحقيقي ــ كما يقول شيخنا الجليل وإمام عصره الدكتور/ **عبد الحليم محمود** طيب الله ثراه ــ:" صفاء ومشاهدة " [٢٨]

وفاته .

ونأتي إلى نهاية المطاف حيث فاضت روح الشيخ الطاهرة إلى بارئها بعد ثلاث وثمانين سنة ، عاشها مجاهداً في سبيل الله ومصلحا اجتماعياً ، وداعيا إلى الله بكل ما تحمله كلمة (الدعوة) من معان سامية وما تتطلبه من جرأة في الحق وثبات على المبدأ وغيرة على دين الله.

كانت وفاة الشيخ نهاية لحياة رجل عرف الله فعرفه وأمده بعونه ، يقول صاحب **تاريخ علماء بغداد** : " توفي الشيخ يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة ٦٦٠هـ ، ودُفن من الغد بسفح المقطم بمصر وحضرت ذلك"([٢٩])

ويقول **السبكي** : " لما مات الشيخ وبلغ نبأ موته **الظاهر بيبرس** قال : لا إله إلا الله ما اتفقتْ وفاة الشيخ إلا في دولتي ؟ ، وحزن عليه حزناً شديد وخرج من خلفه رجال مصر ونسائها يودعون شيخهم ، وكان يوماً مشهوداً في حياه أهل مصر [٣٠]

رحم الله شيخنا الجليل وجزاه عما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء .

([٢٨]) مقدمة المنقذ من الضلال للمرحوم د٠عبد الحليم محمود .
([٢٩]) تاريخ علماء بغداد للسلمي .
([٣٠]) طبقات الشافعية ٥/١٠٥ .

دعوته إلى الله تعالى .

ساهم الشيخ في ميدان الدعوة إلى الله بنصيب موفور ، فمارس القضاء والخطابة والإفتاء والتدريس .

وفيما يلي لمحات يسيرة عن إسهامات الشيخ في ميدان الدعوة :-

الشيخ.. القاضي .

تولى شيخنا منصب القضاء في مصر والشام ، يقول **السبكي** : " ثم ولاه الملك الكامل قضاء مصر بعدما اشترط عليه شروطاً كثيرة ." [٣١]

والمعروف أن المدة التي حكم دمشق خلالها الملك الكامل كانت قصيرة ، ولما خلف الصالح إسماعيل عزل الشيخ عن القضاء نظرا لكراهيته له[٣٢]

وعندما هاجر الشيخ إلى مصر سنة ٦٣٩هـ أحسن السلطان أيوب استقباله وولاه منصب قاضي قضاة مصر ، وإذا كان عامة المؤرخين قد اتفقوا على أن الصالح أيوب قد أكرم الشيخ وأحبه وعينه قاضي قضاة مصر ، إلا أن هذا لم يدم طويلاً ، فقد وجد السلطان نفسه أمام رجل يتسم بالصلابة في قضائه ، لا يهادن أحداً ، ولا يتساهل في أحكامه مع أحد ، ومن ثم تباينت المواقف وأصبحت بينهما قائمة في كل ما يخالف الشريعة الإسلامية.

سماته في القضاء .

اشتهر شيخنا بالنزاهة في القضاء والجرأة في التنفيذ والعدالة في الحكم ، وقد واجه الشيخ بسبب ذلك تحديات عاتية فصمد أمامها ،وخير شاهد على ذلك موقفه من المماليك حينما حكم ببيعهم ، ورفض السلطان ذلك أول

---

(٣١) المصدر السابق والصفحة .
(٣٢) المصدر السابق ٥/٩٥ .